من صور الليل في الشّعر العربي الجاهلي

*أ.إبراهيم الصديق احرير *د. محمد ابوشعالة صالح

تاريخ الاستلام:2024/8/4 تاريخ القبول: 2024/9/29 تاريخ النشر: 2024/11/16

المستخلص: إن القضية التي تحاول هذه الورقة أن تسلط الضوء عليها هي إشكالية صورة الليل لدى الشاعر العربي قبل الإسلام وكيف اختلفت هذه الصورة من شاعر إلى آخر باختلاف الدوافع التي تقف خلف تلك القضايا، والحالة النفسية المختلفة للشعراء التي جعلت منهم يتناولون الليل بصور مختلفة باختلاف الدوافع النفسية، والفكرية، والوجدانية بين أولئك الشعراء. وماهي الدوافع الكامنة في اختلاف تلك الصورة النمطية الواحدة لليل بين الأدباء في نتاجهم الأدبي الشعري خاصة منه، مع افتراض أن الحالات النفسية والوجدانية للقضايا التي يتفاعل معها الأديب هي السبب وراء ذلك الاختلاف لصورة الليل في النتاج الأدبي لشعراء ما قبل الإسلام عن الليل. فإشكالية البحث تنطلق من السؤال الذي يقول: ما هو أثر العوامل والدوافع النفسية والبيئية والقضايا المجتمعية في اختلاف مفهوم الليل بين الشعراء العرب قبل الإسلام؟

كلمات مفتاحية: الليل. الشعر الجاهلي. الليل والفخر. ليل العاشقين. الليل والهموم

Images of the night in pre-Islamic Arabic poetry

Ibrahim Al-Siddiq ihryr
Muhammad Abu Shaala Saleh

Abstract: The issue that this paper attempts to shed light on is the problem of the image of the night among the Arab poet before Islam and how this image differed from one poet to another depending on the motives behind those issues, and the different psychological state of the poets that made them deal with the night in different ways depending on the psychological motivations. Intellectual and emotional among these poets. What are the motives What lies in the difference in that one stereotypical image of the night among writers in their literary and poetic production in particular, with the assumption that the psychological and emotional states of the issues with which the writer interacts are the reason behind that difference in the image of the night in the literary production of pre-Islamic poets about the night. The research problem stems from the question that says: What is the impact of psychological and environmental factors and motives and societal issues on the difference in the concept of night among Arab poets before Islam؟

Keywords: the night. Pre-Islamic poetry. Night and pride. Night of lovers. Night and worries

مقدمة:

لكل أمة من الأمم آدابها وفنونها التي تعبر عنها وعن وجدانها القومي ووعيها الجمعي، وتكاد تكون تلك الفنون من المظاهر التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء، كونها تتخذ من اللغة وسيلة للتعبير عن تلك الفنون والآداب اللغوية، فالأدب هو مادة اللغة التي يقوم بها وتعبر عنه وعن تلك الأقوام المختلفة وعن أمانيهم وتطلعاتهم وأحلامهم.

وبما أن اللُّغة ظاهرة اجتماعية تكاد تكون من أهم الظواهر التي عرفتها البشرية، كان من ضمن وظائفها الكثيرة التي تعبّر في مجملها عن سرائر البشرية الوظيفة الجمالية، تلك الوظيفة التي تُعنى بالأدب خاصة فيما تعنيه من مقاصد التعبير عن اللغة الجميلة المؤثرة والموحية المعبّرة.

* محاضر بقسم اللغة العربية جامعة سرت ihryr@su.edu.ly
* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية جامعة سرت Dr.mhmed@su.edu.ly

ومع التشابه في الإطار العام للآداب بين الأمم المختلفة في آدابها اللغوية المتمثلة في الشعر والنثر الفني بشتى مجالاته، إلا أنها تظل هناك فوارق بيّنة فيما بينها من حيث التأثير والتأثر، ومدى الاهتمام بتلك الفنون الأدبية داخل إطار الأدب القومي الواحد.

ويعد الأدب العربي ممثلاً في شعره أحد الآداب العالمية التي تقدس هذا النتاج الأدبي منذ نشأته وحتى يومنا هذا؛ فكم من دراسات وكتابات تحدثت ومازالت تتحدث عن هذا النتاج الفني الباهر حتى كثُرت عنه المقولات التي صارت تتناقلها الألسنة عبر الأجيال تتحدث عن عظمة هذا الإرث والتراث الفني الأدبي، ومنه قولهم: "كان الشعرُ في الجاهلية ديوانَ علمهم، ومنتهى حُكمِهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"(الجُمحي،1976: ص105) وقوله صلى الله عليه وسلّم: " إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحُكماً أو حكمة" (ضيف،1963: ص44) كل ذلك أسهم في أدبية هذه اللغة وزادها فوق بائها حُسناً وجمالاً.

فالأدب كان هو التعبير عن اللغة من خلال أدبية اللغة الراقية، والتي ليس من ضمن مقاصدها فقط إيصال المعنى بل أيضاً الاهتمام بجمال التراكيب والعبارات من خلال العاطفة الجيّاشة الصادقة والمؤثرة في نفوس السامعين، كذلك موسيقاها المعبّرة النابضة بالجمال والإحساس الفني الباهر الممتزج في بوتقة الخيال الذي يداعب أخيلة المتلقين، فينتهي إلى الأسماع من خلال انفعالات الشاعر المرهف الأحاسيس صاحب الخيال البديع الجميل.

وهكذا ارتبط الأدب باللغة الجميلة، والحسّ الفني المرهف، والخيال البديع المثمر، والعاطفة الجيّاشة الصادقة، والوجدان الشاعري الصادق.

ومن خلال هذه التوليفة البديعية الجميلة كان للأدب تأثير مباشر على المجتمع، والإنسان من خلال الرُّقي بذائقته الأدبية وما لذلك من تأثير على مستويات التعبير الفني للغة.

كان ارتباط الأدب بظاهرة الليل ارتباطاً وثيقاً قديما قدم الأدب نفسه، حيث كان الليل هو الفُسحة التي يجد فيها الأديب براحا واسعا للتعبير عن مكنونات نفسه، وخلجات روحه. ونظراً لطبيعة الليل الخاصة التي تتجلى في سكونه، وهدأته، وخفاء لسائر الكائنات فيه والتي يلفها بعتمته وظلامه كل ذلك جعل منه مادة خصبة للمجتمعات الإنسانية حيث ارتبط فيها الليل بالخرافات والأساطير والقصص الخيالية وذلك ألهب مشاعر الأدباء والعشّاق والحالمين، حيث تم الربط الشرطي بين الليل والأدب لدى الشّعراء والأدباء وأيضاً المفكرين، ونتيجة لهذا الارتباط بين الليل والفكر الإنساني الأدبي فقد تنوعت صورة الليل لدى الأدباء وذلك بتنوع حالاتهم النفسية والوجدانية وهذا أدى إلى تنوّع النتاج الأدبي والفكري بحسب الأدباء من خلال طرحهم لأدبهم وطريقة تناولهم لجملة المواضيع الإنسانية التي تناولوها من خلال القضايا التي عرضوا لها بحسب تأثرهم بها ومدى إحساسهم وإيمانهم بتلك القضية والمواضيع الأدبية المطروحة، فكان الشعراء يشتكون من الليل وطوله عندما يخيم عليهم وهم مهمومون محزونون، ويكون قصيرا سريع الانقضاء عندما يكونون عشاقا يجمعهم الليل مع المحبوب، حيث يكون الليل هو الستر والغطاء الذي يمنع عنهم أعين الرقباء، فنجد أن الليل كان الملهم والدافع والحافز للأدباء في التعبير عن فيض إبداعاتهم الفنية الأدبية من خلال رفقتهم لليل الذي تتراءى فيه وتظهر أفكارهم وأوهامهم ومخاوفهم أمام أعينهم فتشخص مع الليل وتساهر فيه النجوم، وتسهد فيه العيون فلا يجدون بُداً من التعبير عن تلك الهواجس والمخاوف والأوهام في نظم أدبي يعبّر عن مدى معاناتهم، ويحمل هواجس أنفسهم القلقة وأمنياتهم وأحلامهم حتى تنجلي تلك الغيوم التي أدلجت مع الليل وزادت من همومهم، وأحزانهم، وأشواقهم.

عرف العرب الشّعر منذ أن عرفوا الحياة، فكان العربي يعتبر هذا النظم الأدبي ليس مجرد عمل أدبي فحسب بل انما هو المعين على الحياة في بيئة صحراوية قاسية كل ما فيها قاس وصعب، فكان الشعر الزاد والرفيق المعين على صعاب الحياة ومشاقها وكل

قسوتها، وفسحة الأمل الذي يلوح من خلف كثبان الصحراء، والمتنفس للنفس، وواحة ترتاح تحت قبابها الأرواح المتعبة، لذلك كان الشّعر مدونة حياة العرب فذكروا فيه كل شيءٍ خاص وعام، فلم يستطع الشاعر أن يميز في شعره وشاعريته ما بين نفسه وبين مجتمعه وبيئته، لذا نجد الشاعر العربي وشعره كانا متداخلين في كل المواضيع العام والخاص، والذاتي والمجتمعي، كون الشعر يؤدي في ذلك المجتمع البدوي أدواراً منها: التسجيلي، والإعلامي، والترفيهي، والتعبيري الخاص والعام، فكان الشّعرُ يعبّر عن نفوسٍ كثيرةٍ مع تعبيرهم مع تعبيره عن نفسه الشاعرة، ولأجل ذلك كان الشعرُ علم العرب الذي ليس كمثله علم على الرغم من كونه تعبيرٌ عن اللُّغة الجميلة المؤثرة في نفوس المتلقين.

ومن هذا المنطلق كان الشاعر شديد التفاعل مع قضايا مجتمعه القبلي الصغير، وبيئته شديدة القسوة، علاوة عن تأثره بقضاياه الخاصة وما يدور في فلكها أحداث كثيرة مختلفة، ومن تلك القضايا أمورٌ كثيرة كانت تشغل بال هؤلاء الشعراء وتذهب عنهم السّكينة والراحة وتشغلهم فنجدهم يشاكون الليل الطويل جراء تلك المعاناة مما سمح للأدب العربي بنتاج شعري غزير يتحدث عن القضايا التي أهمت أولئك الشعراء الذين يناجون الليل الطويل ونجومه بهموم لا تنقضي ولا تنجلي حتى بانقضاء الليل ونجومه ولكنها تستمر معهم باستمرار معاناتهم تلك.

إن القضية التي تحاول هذه الورقة أن تسلط الضوء عليها هي إشكالية صورة الليل لدى الشاعر العربي قبل الإسلام وكيف اختلفت هذه الصورة من شاعر إلى آخر باختلاف الدوافع التي تقف خلف تلك القضايا، والحالة النفسية المختلفة للشعراء التي جعلت منهم يتناولون الليل بصور مختلفة باختلاف الدوافع النفسية، والفكرية، والوجدانية بين أولئك الشعراء. وماهي الدوافع الكامنة في اختلاف تلك الصورة النمطية الواحدة لليل بين الأدباء في نتاجهم الأدبي الشعري خاصة منه، مع افتراض أن الحالات النفسية والوجدانية للقضايا التي يتفاعل معها الأديب هي السبب وراء ذلك الاختلاف لصورة الليل في النتاج الأدبي لشعراء ما قبل الإسلام عن الليل. فإشكالية البحث تنطلق من السؤال الذي يقول: ما هو أثر العوامل والدوافع النفسية والبيئية والقضايا المجتمعية في اختلاف مفهوم الليل بين الشعراء العرب قبل الإسلام؟

إن الأهداف التي يسعى إليها هذا البحث هو الغوص العميق في بنية النصوص الأدبية وتحليلها بغية الوقوف على صور الليل المختلفة في الشعر العربي قبل الإسلام بين جمهور الشعراء، في محاولة لفهم أسباب ذلك الاختلاف في الطرح والعرض من خلال دراسة وتحليل النصوص الشعرية التي تناولت الليل من وجهة نظر الشعراء الجاهليين على مختلف أسرابهم وتنوع مذاهبهم الشعرية.
ولمعالجة هذه الإشكالية تقترح هذه الورقة ثلاثة مباحث: الأول يتناول مفهوم الليل في اللغة والاصطلاح، وأسماء الليالي عند العرب ومفهومها.

المبحث الثاني يتناول مفهوم ليل العاشقين في الشعر العربي الجاهلي، والمبحث الثالث يتناول الهموم وارتباطها بأدب الليل عند الشعراء العرب قبل الإسلام.

وقد توسلت الورقة البحثية بالمنهج الوصفي التحليلي وذلك لقدرته على تحليل المشكلة أو ظاهرة البحث العلمي بشكل دقيق، والتعرف على أسباب حدوثها، مما يساعد على الوصول الى استنتاجات ونتائج وحلول دقيقة لها، كما أنه يتسم بشموليته الواسعة ومرونته الكبيرة في التحليل والمقارنة للوصول إلى نتائج علمية رصينة.

اللَّيْلُ لغةً:(التليسي،2000: ص 2095/2096)

"الَّيْلُ: عقيب النهار ومبدؤه من غروب الشمس، الليل ضد النهار اسم لكل يوم. والليل اسم لكل ليلة، لا يقال نهار ونهاران ولا ليل وليلان، إنما واحد النهار يوم وتثنيته يومان وجمعه أيّام وضدّ اليوم ليلة وجمعها ليال وقد جمع على ليال فزادوا فيه الياء عللا غير قياس، قال: ونظيره أهل وأهَالٍ، ويقال كأنَّ الأصل فيها لَيْلاً فحذفت. وليلة لَيْلاءُ ولَيْلَى: طويلة شديدة صعبة وهي أشدُّ ليالي الشّهر ظُلمة، وبه سُميت المرأة ليلى، وقيل: الليلاء ليلة الثلاثين، وليْلٌ أَلْيَلُ: شديد الظلمة؛ قال الفرزدق:

قالوا وخائره يُرَدُّ عليهم والليلُ مختلط الغياطل أَلْيَلُ

يقال لليلة ثمان وعشرين الدَّعجاء، ولليلة تسع وعشرين الدَّهماء ولليلة الثلاثين اللّيْلاء، وذلك أظلمها، وليلةٌ لَيْلاء:

كم ليلةٍ ليلاء مُلبسة الدُّجى أفْق السّماء سَرَيْتِ غير مُهيَّب

اللَّيْلُ: الذكر والأنثى من الحُبارى، ويقال: هو فرخها وكذلك فرخ الكروان، وأم ليلى الخمر وليلى هو النَّشْوةُ وهو ابتداءُ السُّكر، ولَيْلَى: من أسماء النساء، والجمع لَيالي، قال الراجزُ:

لم أرَ في صَوَاحبِ التَّعالِ

اللابِسَات البُدَّن الحَوالي

شبْهاً لِلَيْلَى خِيرة اللَّيالي "

- **ظاهرة اللّيْلُ:**

ظاهرة الليل من الظواهر الطبيعية والتي تنتج من دوران الأرض مرّة كل 24 ساعة حول محورها، فعندما تور الأرض حول هذا المحور تكون الجهة المقابلة للشمس مختلفة في كل فترة زمنية فترة دورانها ذلك، فالناحية المطلة على الشمس يسقط عليها الضوء مباشرة مكونا ما يعرف بالنهار، أما الناحية الأخرى للأرض فتكون مظلمة وذلك بسبب عدم تعرضها لأشعة الشمس وهكذا تتكون ظاهرة الليل.

وقد كان لهذه الظاهرة الطبيعية تأثيراً عظيماً على حياة الإنسان منذ أقدم العصور البشرية، فبحكم طبيعة الليل كونه سكناً وملجأ للراحة بعد عناء يوم طويل وشاق ومتعب لاسيما أن الإنسان كان يعتمد ومازال على الجهد البدني في أغلب أعماله اليومية؛ كذلك أرتبط الليل بالقصص، والحكايات، والأساطير التي تروى في دهاليزه المظلمة المعتمة التي نسجتها المخيلة الإنسانية من خلال وعيها الأولي بالليل المتأثرة بمخاوفها الطفولية الأولى خاصة في وسط ينمو به العقل الماورائي في كافة تفسيراتها للأمور الطبيعية في انعدام المعرفة والعلوم.

ارتبط الليلُ بكثير من الصور والمفاهيم التي تعبر عنه من خلال أدبيات اللغة التي عبّرت عنه من خلال ما اختزلته الذاكرة الإنسانية المجتمعية والتي تمثلت في الحكايات، والخرافات، والأساطير، وأحداث كثيرة تُروى يكتنفها الكثير من الفكري الغيبي الماورائي الذي نشأ في كنف الليل وسواده المظلم المخيف من خلال ما انتابها من مشاعر وأحاسيس أدبية مختلفة، فقد كان الليل في الأدب الإنساني يتمظهر بأنماط كثيرة ومختلفة، وذلك من خلال الدوافع النفسية التي تختلف من أديب لآخر مما شكّل ظاهرة أدبية في اختلاف صورة الليل بحسب المواضيع المطروحة، والدوافع النفسية، والفكرية، واختلاف الظروف البيئية، والثقافية بين الأدباء مما أدى إلى تناول الليل بشكل أدبي لكنه بدلالات مختلفة جداً، وذلك يرجع مرده إلى الذات المبدعة للأثر الأدبي، فالليل

وما به من سكون، وهدأة، وظلمة معتمة تلف الكون كانت بمثابة الفضاء الذي التي يتحرك فيه الاديب بحرية كبيرة، وواسعة، مشّكلة له حالة من الإلهام، والإبداع الذي يتماهى مع هذا الفضاء المعتم اللامحدود، فتظهر فيه كوامن النفس وما يعتمر بها من محسوسات وهواجس ومخاوف فتكون ادة لتشكيل النص الأدبي المعبر عن الأديب وكيف يرى الليل بعيون أدبه.

– من اسماء الليل عند العرب:

لما كان لليل من أهمية في حياة العرب فقد كثُرت أسماء الليل عندهم بحسب فصول السنة، وشدة برودة الليالي واشتدد عتمتها ودجاها، وارتباط ذلك بحياتهم ومعيشتهم، وانعكس كل ذلك على حياتهم الفكرية والأدبية.

فقالت العرب:(الأسكافي،1985: ص13/12) "أتيته ظلاماً وعشاءً، وممسياً عند غيوب الشمس، وقلس الظلام، وقلث الظلام وجنح الليل وفحمة العشاء إذا اختلط الظلام وذهبت معارف الأرض. وأتيته فورة العشاء أي عند العتمة وذلك إذا غاب الشفق وهو بقية ضوء الشمس وحمرتها وجاءه غسق الليل وغطشته ودمسه إذا لم يبقَ شفق. وبعد هزيع أي نصف من الليل وجوزه وسطه وأبهارّ انتصف والبُهرة الوسط والعِتْك ثلث الليل الباقي، والجُهمة بقية من آخر الليل والسّحر قبل الفجر وغلّسهم أتاهم قبل الصبح بسواد الليل والهَبّة الساعة تبقى من السحر، والغَبَش حين تُصبح. والخيط الأسود الليل ويقال عليك ليل أغطف أي طويل مُنْثَنٍ. وليل مُرْجَحنٍ ثقيل واسع الملبس. وليلة غاضية شديدة الظُلمة وطخياءُ وحندِس وداجيةٌ مظلمة فيها غيمٌ. وساجيةٌ ساكنة البرد في الشتاء. وليلٌ عِظْلِمٌ ومظلم. ويقال روَّق الليل وجنَّ جنوناً وأرخى سدوله وروقية وسجوفة. وليلٌ أليل منكرٌ وأدلجوا وادّلجوا ساروا الدَّلجة وهي سير الليل والتعريس نوم آخره".

– أسماء ليالي الشّهر عند العرب:

سمت العرب كل ثلاث ليالٍ من الشّهر القمري باسم وقد جاءت على هذا النحو الآتي:

1. غُرر: غُرّة الشيء رأسه وأوله وهي أول ثلاث ليالٍ من كل شهر.
2. شُهُب: وهي الليلة التي يكون القمر فيها قد بدأ بالظهور، وتسمى أيضاً بالنُفَل وتكون عادة من الليلة الرابعة وحتى السادسة.
3. بُهر: وهي الليلة المقمرة المنيرة حيث يبهر فيها ضياء القمر ظلام الليل، وتسمى أيضاً تُسعاً لأنها تصادف التاسع من كل شهر.
4. عُشر: وهي الليلة العاشرة وحتى الثانية عشرة من كل شهر.
5. بِيض: وهي الليلة تمام البدر، وسُميتْ بذلك لأنها تكون فيها السماء بيضاء من شدّة سطوع نور القمر وهي عادة تكون من الليلة الثالثة عشرة وحتى الليلة الخامسة عشرة من كل شهر.
6. دُرغ: وهي الليلة التي يكون نور القمر فيها خافتاً هادئاً لاسوداد أولها وابيضاض سائرها، وهي تكون في الليلة السادسة عشرة وحتى الثامنة عشرة ن كل شهر.
7. ظُلم: وهي الليلة التي يغلب فيها سواد الليل نور القمر، وهي الليلة التاسعة عشرة وحتى الليلة الحادية والعشرين من كل شهر.
8. حنادس: وسميت بذلك لشدّة سوادها وهي تبدأ من الليلة الثانية والعشرين من الشهر وحتى ليلة الرابع والعشرين.
9. دآدي: وهي ليلة شديدة العتمة وتكون في ليلة الخامس والعشرين وحتى السابع والعشرين من الشّهر.

10. مُحاق: وسميت بذلك لامتحاق أي اختفاء القمر فيها تماماً، وهي الليلة الثامنة والعشرين وحتى ليلة الثلاثين من كل شهر.

الليل والفخر:

ارتبط الليل بأخيلة الشّعراء منذ القِدم، فالليل يمثل الزمان الذي يحجب فيه الظلام بعتمته رؤية الأشياء بصرياً، وهذا أتاح رؤية الأشياء وإعادة اكتشافها من خلال الغوص في أعماق الفكر والخيال معاً، فهذا الظلام الذي يلف الدنيا ويحجبها عن أعين الناس جعل من التعامل مع القضايا المختلفة خاصة تلك التي يطرحها الشعراء وجمهور الادباء عامة فتأخذ منحىً مختلفاً عن صورة تلك الأشياء عندما نتعامل معها بصرياً، وفكرياً، فأتاح هذا الزمان الذي يلفه الدُّجى، والهدوء، والسكينة، وانفراد الشاعر بذاته أن يبحر فيه وحيداً متحررا من كل الأثقال المادية التي تحدّ من فكره وخياله.

فالشاعر يترك نفسه لليل فهو يمنحه مجالا متسعا للتعبير عن أفكاره، وعواطفه المختلفة التي تنطلق من كوامن ودوافع نفسية تختلف من شاعر إلى آخر، البصر قد يحدُّ من اكتمال الفكرة عكس العتمة التي تعطي الشاعر مجالاً للتعبير عن القضايا والأفكار والعواطف من خلال التداعيات الحرّة للذات الشاعرة التي لا يعقلها البصر بعقاله ويقيدها إطار محدد لا تكاد تعبره وتتحر منه، الليل يهب للشعراء لجّة مترامية الأطراف قصية لا يحدها حدٌّ فتسمح لهم بإخراج أسرار النفس، وخبايا الروح، والغوص في معان الفكر والشجن، للوصول إلى تعبير يشفع للأروح القلقة بالوقوف في وجه مخاوفها، في محاولة تفسيريه، وأخرى تبريرية لموقفها من الحياة في قالب لغوي جميل ومؤثر، وكل ذلك في لحظة شعورية دافقة ذات ليلة شتوية باردة، محمّلة بالقلق، والخوف، والهواجس.
ومن تلك الصور الكثيرة التي يتمظهر فيها الليل في الشعر العربي الجاهلي صورة ارتباط الليل بالفخر الذي يعتبر من أهم أغراض الشعر العربي القديم، وقد تجسد ذلك الفخر في مظاهر كثيرة في الشعر العربي قبل الإسلام، ومن تلك المظاهر التي افتخرتْ بها العرب في أشعارها الكثيرة، الفخر بالكرم حيث إن الحياة البيئية في شبه الجزيرة العربية مهد حياة العرب كانت ذات طبيعة صحراوية شديدة، ومناخ قاس لا يساعد على البقاء والحياة، فهي بيئة قاسية شحيحة الموارد المائية والطبيعية وبالتالي فهي بيئة فقيرة من الناحية الزراعية والاقتصادية عامة، مما أدى إلى انعكاس تلك البيئة على الحياة الإنسانية، ما دفع سكانها إلى التعايش القسري، والتأقلم مع الظروف المناخية الشديدة القسوة، وذلك كان له أبلغ الأثر على نمط معيشتهم التي فُرِضَ عليها الترحال المستمر، وعدم الاستقرار في مكان معين ثابت معلوم، فكانوا بدوا رُحلّا لا يقرُّ لهم قرار، وارتبطت حياتهم بالرحيل المستمر، والتنقل الدائم بحثا عن مواطن الكلأ والماء، فكثُرتْ حروبهم وغاراتهم ومرد ذلك كُلُّه إلى الظروف المناخية في نلك البيئة القاسية.
وفي ظل تلك المعاناة اليومية التي تجعل من توفير لقمة العيش تحدٍ شبه يومي لاستمرار ضمان الحياة، ظهرت قيم أخلاقية مجتمعية في صحراء لا تنبت العشب لكنها أنبتت قيما نبيلة، سامية ظلت على مدى الزمان تتوارثها الأجيال كابر عن كابر، ومن تلك القيمة العليا العربية إكرام الضيف رغم العوز والفقر والقلة، فكان الكرم من أعظم الصفات النبيلة التي كان يفخر بها العربي في صحرائه المهلكة، المترامية الأطراف، وارتبط الكرم في مفهوم الأدب العربي بإطعام الضيوف وإكرام وفادتهم على الرغم من تفشي الفقر بين أغلب العرب في تلك الفترة، فكانوا يفخرون بإطعام الطعام، وإكرام الضيوف في الليالي شديدة البرودة، حالكة الظلام، في زمن كانت المجاعات تضرب بعنف نجوع العرب كافة؛ فكان الفخر بالكرم في أشعارهم من أعظم القيم الخُلُقية التي كان الشاعر العربي يعتز به ويعكسه في صوره الشعرية التي ينطق بها ويعبر عنها في أدبه عندما يشعر بالسعادة رغم ألم الفقر وشدة العوز لكنه في ذات الوقت يجد لذة روحية وسعادة نفسية تعبر عنها دفقة شعورية شعرية تتمثل حاضرة في نسيج لغوي

شعري باهر جميل يمتزج مع الليل وفضائه الواسع ليعبر عن فضائل نفسية وحلل لغوية باهرة في شكل أدبي مؤثر يبعث بالسعادة والنشوة الروحية والفكرية والجمالية معاً.

ونتمثل تلك الصورة الجميلة المعبّرة الباهرة في أشعار الكرم الكثيرة عند العرب، خاصة في أشعار حاتم الطائي الذي ضُرِبَ به وبكرمه الأمثال التي سارت بين ديار العرب الكثيرة، وظلت تسير حتى يومنا هذا، فقد ارتبط الفخر بالكرم لأنه يمثل صورة أخلاقية تناولها الشاعر الجاهلي من خلال قضية الأخلاق والمثل العُليا، وكيف عبرت عنها الذات الشاعرة من خلال ارتباطها بالزمان والمكان، فكان الزمان قطع الليل المعتمة المخيفة التي ارتبطت بالأساطير والمخاوف والهلاك، أما المكان فهو صحراء مهلكة لا نجاة منها إن قلّ الزاد والماء، والسباع الضاريات التي تتربص من كل صوب ومكان بالسّاري في ظُلمة تلك المفازة المهلكة الخطيرة إن لم يلُح له من بعيد ضوء كريم يهب الحياة للحياة كي تستمر.

وبالرجوع إلى ذاكرة العرب الشعرية نجد قضية الفخر بالكرم المشحونة بدوافع فكرية، ونفسية، وخُلُقية، تمثلت في التعبير عن تلك الصور الشعرية التي عبّر عنها حاتم الطائي أكرم العرب بقوله:(الطائي، 2055: ص26)

لَمّا رَأَيتُ الناسَ هَرَّت كِلابُهُم ضَرَبتُ بِسَيفي ساقَ أَفعى فَخَرَّتِ

فَقُلتُ لِأَصباهِ صِغارٍ وَنِسوَةٍ شَهباءَ مِن لَيلِ الثَلاثينَ قَرَّتِ

عَلَيكُم مِنَ الشَطَّينِ كُلَّ وَرِيَّةٍ إِذا النارُ مَسَّت جانِبَيها اِرمَعَلَّتِ

وَلا يُنزِلُ المرءُ الكَريمُ عِيالَهُ وَأَضيافَهُ ما ساقَ مالاً بِضَرَّتِ

وهنا يسجل الشاعر الجاهلي صورة من صور الفخر متمثلة في إكرام الضيوف رغم العوز الشديد، والفقر المحيط بتلك البيئة الفقيرة القاسية، فحاتم الطائي طرقه أضيافاً ذات ليلة قرّ باردة كأنها سياطا تُلهب الأجساد، ولم يكن لديه ما يقدمه لضيوفه، فما كان منه إلا أن قام إل ناقته" الأفعى" وهي ناقة شديدة حرفة، كان حاتم يشدُّ عليها رحله ليطوي بها عناء المسافات في أسفاره البعيدة، فعقرها بسيفه وأطعم منها ضيفه الذين رمت بهم مجاهل البيداء في ليلة شديدة البرودة مظلمة، فقام بإشعال النار ووضع عليها القدور وبها لحم كثير فأطعم ضيوفه، والنساء و الصّبية والجياع من بني قومه، حتى شبع الجميع تلك الليلة؛ بعدما ضحى حاتمٌ بناقته الأفعى حتى لا يوسم بالبخل بين العرب! وناقته تلك كانت مركوبه الذي يقضي به حاجاته، فقد جسّد الشاعر الجاهلي تلك الصورة الخُلُقية المشرقة التي يفخر به العرب جميعاً، وظلت حتى يومنا هذا مضربٌ للأمثال، ومبعثٌ للفخر والسعادة. ولنا أن نتخيل هذه الصورة بمفهومنا اليوم المعاصر في ضيف يطرق بابا في ليلة شتائية باردة ولا يملك المضيفُ لضيفه الطعام والقرى، فيقوم ببيع سيارته الفارهة الفخمة في ذات الليلة حتى يشتري طعاما ليطعم به ضيفه الذي طرق بيته! فيالها من صورة تعجز الكلمات والأبيات عن وصفها والبلوغ إلى منتهى كمالها، فالكرم يكاد أن يكون على رأس المكارم التي تفخر بها العرب، ونجد ذلك في أشعارهم التي تؤكد عمق تلك الفكرة لديهم، خاصة عندما يكون الحال كما هو عليه في بيئة شبه مُعدمة اقتصاديا وتزداد قيمة تلك المكارم والحث عليها والفخر بها مع اشتداد ظُلمة الليل، وشدّة الإمساك في الصرف خشية الإملاق، لأن الذين يطرقون ليلاً كُثر ولا حيلة للناس بهم، وقد جسد الشاعر الجاهلي تلك الصورة من الفخر بالكرام خاصة عندما يكون الضيوف من طراق الليل بقوله:(الطائي،2055:ص27)

نِعمّا مَحَلُّ الضَيفِ لَو تَعلَمينَهُ بِلَيلٍ إِذا ما اِستَشرَفَتهُ النَوابِحُ

تَقَصّى إِلَيَّ الحَيُّ إِمّا دَلالَةً عَلَيَّ وَإِمّا قادَهُ لِيَ ناصِحُ

فحاتم الطائي يفخر بإكرام وفادة الضيوف، فينشئ المدح لتلك المكرمة لمن أكرم ضيفه ففي ليلة وقف بها المضيف وهو يستشرف الضيوف بعدما نبحت كلابهم في دلالة على قدوم طارق للحي، فهو يبسط كفه فوق حاجبه ليرى القادم في لجة ذلك الظلام المخيف، حتى يقوم بواجب الضيّافة لضيف أتعبه المسير والبحث عن ديار يقضي بها ليلته بعد عناء يوم شاق طويل.

فنرى أن الشعراء العرب في الجاهلية كانوا يرون أن ليل الصحراء المخيف الذي تحيطه الملاك من كل حدب وصوب قد ارتبط في شعرهم بصورة أخلاقية كبرى متمثلة في مساعدة العابرين وإكرامهم من خلال تزويدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وماء ومتاع في صورة تتجلى فيها مظاهر الإيثار والنبل والكرم.

ونجد ذات الصورة لليل الكرام في جزيرة العرب وقد خلدها الشعراء الجاهليين في أجمل لوحة مثالية تكاد تقصر عنها أراء وتنظيرات علماء الفلسفة ومباحث الأخلاق، فهذا الشاعر عمرو بن الأهتم المنقري يجود بقصيدة غاية في الروعة والكمال تتناول الفخر بمكارم الأخلاق خاصة منها قضية الكرم التي تُعد من المناقب الحميدة حيث صوّر فيها الليل والكرم معا مجتمعان لتبرز قيمة الفخر بالكرم في ذلك المجتمع العربي الذي كان يعاني قسوة الحرمان فصنع من تلك القسوة قيمة أخلاقية عظيمة توارثتها الأجيال كابر عن كابر، وذلك في قوله:(ابن الأهتم، 1984: ص91)

ذَرينِي فـإِنَّ البُخْلَ يَـا أُمَّ هَيثَمٍ   لِصَالِحِ أَخـلاقِ الرِّجالِ سَـرُوقُ
وإِنِّـي كـريـمٌ ذُو عِيـالٍ تهِمُّنِي   نَوَائِبُ يَغْشَى رُزْؤُهـا وحُقُـوقُ
ومُسْتَنْبِحٍ بعـدَ الهُـدُوءِ دَعْـوَتُـهُ   وقد حانَ من نَجْم الشِّتاءِ خُفُوقُ
يُعالِجُ عِرْنيناً مـنَ اللَّيلِ بـارداً   تَـلُـفُّ رِيــاحٌ ثَـوْبَـهُ وبُــرُوقُ
أَضَفْتُ فلم أُفْحِشْ عليهِ ولم أَقُلْ   لأحْـرِمَـهُ: إنَّ الـمـكـانَ مَـضِـيـقُ
فَقلْتُ لـهُ: أَهـلاً وسهـلاً ومَرحباً   فـهـذا صَبُـوحٌ راهِــنٌ وصَـدِيـقُ
وقُمتُ إِلى البَرْكِ الهَوَاجِدِ فاتَّقَتْ   مَقاحِيدُ كُـومٌ كـالـمَجَادِلِ رُوقُ
بِضَرْبـةِ ســاقٍ أَو بِنَجْـلاَءَ ثَـرَّةٍ   لـهَـا مِـن أَمـامِ المَنْكَبَيْنِ فَتِيـقُ
فَباتَ لَنَا منها ولِلضَّيْفِ مَوْهِنا   شِــوَاءٌ سَمِـيـنٌ زَاهِــقٌ وغَـبـوقُ
وكـلُّ كَرِيـم يَتَّقِي الـذَّمَّ بالقِرَى   ولِلخَيْرِ بيـنَ الصّالحينَ طَـرِيـقُ
لَعَمْرُكَ مـا ضـاقَتْ بِـلاَدٌ بأَهْلِهَا   ولـكـنَّ أَخـلاقَ الرِّجالِ تَضيقُ

لقد رسم لنا ابن الأهتم لوحة فنية لا تقل ثراءً عن اللوحات الفنية العظيمة التي تركها فنانو عصر النهضة في أوروبا من أمثال ليوناردو دا فينشي الرسّام الإيطالي الشهير الذي جسد في لوحته "الجوكاندا" رائعة إنسانية عظيمة ظلت ومازالت تمثل تحفة فنية خالدة، ولا نبتعد كثيرا عن مجال الفنون الجميلة لنعرض قصيدة عمرو بن الأهتم التي رسم فيها بالكلمة والحرف لوحة لا تقل جمالاً عن رائعة الإيطالي فهي كلها تندرج تحت مظلة الفنون الجميلة؛ فالأدب فنٌ يعتمد على الحرف والكلمة والخيال المرهف والإحساس المرهف الجميل.

لقد لوّن ابن الأهتم بحروفه رائعة من روائع شعر الفخر بالكرم الإنساني عامة والعربي خاصة، ومما زاد ذلك جمالا وروعة هو أن مبعث ذلك الكرم كان في بيئة شديدة الفقر والبؤس، فكان العطاء فيها يمثل قيمة إنسانية عظيمة تلامس أحلام الفلاسفة المثالية بالقيم الأخلاقية العليا، فابن الأهتم يفخر بأخلاقيات وقيم تمثلت في إكرام الضيوف الذين جاءوا ليلاً، فبدأ قصيدته تلك –التي

رسم لنا فيها صورة فنية متكاملة الأركان–بلومه الشديد لزوجته أم الهيثم التميمية التي وعلى عادة الكثيرين تطلب منه عدم إنفاق أمواله على ضيوفه حتى لا يصاب بالفاقة والفقر خاصة وهم يعيشون في بيئة محدودة الموارد الاقتصادية، شحيحة الإمكانات المادية، فالذي يذهب من المال المتمثل في الثروة الحيوانية جراء الإنفاق لا يعود بسهولة ويسر، لكنه يأبى في شمم وكبرياء ويرد عليها بان البخل من الأخلاق الذميمة المكروهة للرجل، فهي تسرق من مروءته، ثم يذكرها بأنه الكريم من أصول كريمة.

وصورة زوجة الأهتم تتكرر في حكايات الكرم في الجاهلية فنجد حاتما الطائي يلوم زوجه على طلبها منه أن يقصر في إكرام الضيف خشية الإملاق وفي ذلك تشابه وتماه مع زوجة ابن الأهتم، فحاتم يلوم زوجه بقوله:(الطائي،2005: ص36)

وَعاذِلَةٍ هَبَّت بِلَيلٍ تَلومُني وَقَد غابَ عَيّوقُ الثُرَيّا فَعَرَّدا

تَلومُ عَلى إعطائِيَ المالَ ضِلَّةً إذا ضَنَّ بِالمالِ البَخيلُ وَصَرَّدا

تَقولُ أَلا أَمسِك عَلَيكَ فَإِنَّني أَرى المالَ عِندَ المِمسِكينَ مُعَبَّدا

فهو أيضاً يرسم صورة الليل في شعر الفخر بالكرم من أن تقديم المساعدة وواجب الضيافة لزوار الليل الذين لا ينقطعون في صحراء مهلكة خطيرة.

وبالعودة إلى ابن الأهتم وحديث فخره بإكرام ضيفه ليلاً، نجده يرسم لنا صورة الليل الممتزجة بالفخر في الشعر الجاهلي بشكل جميل ومعبر فيقول بإنه ذات ليلة شتائية باردة سمع نباح الكلاب فعرف أن هناك طارقٌ قادم نحو مضاربه، ويستطرد الشاعر في رسم لوحة جميلة للضيف القادم نحوه، بأنه جاء في ليلة شتوية قارسة البرودة وقد طرقه في أولها، حيث عبثت رياحها الباردة بأطراف ثيابه من شدّتها، فما كان منه إلا أن قام نحو ضيفه فرحب به ولم يسأله عن شيءٍ ولم يتحجج بضيق المكان حتى يهرب من عناء الضيافة، بل قال له أهلاً وسهلاً مجسدا قيمة عظيمة يفخر بها كل العرب؛ ثم قام إلى أبله حيث نحر لضيفه ناقة عظيمة وسمينة غير هزيلة، فباتوا جميعاً يأكلون منها ويشوون لحمها على النار في ليلة شتائية باردة شديدة البرودة، ويكمل الشاعر تلك اللوحة الجميلة الرائعة المزدانة بمكارم الأخلاق بأبيات فيها من حكمة بالغة، وعظة وخلاصة لتجاربه مع الحياة، فيقول إن الكريم هو الذي يتخذ طريق الجود والكرم منهاجا قويما له حتى يتقي مقالة السوء، وأن المواطن لا تضيق على أهلها وذلك لاتساعها وانما تضيق أخلاق الرجال التي تختلف من شخص لآخر، والشاعر هنا يجسد المثل القائل: الضيق في القلوب وليس في البيوت" بمعنى ان الضيق في أخلاق المرء وليس الضيق في الأماكن.

الليل والغزل:

ارتبط الغزل والعشق بالليل ارتباطا وثيقا أصيلاً مذ كان العشق والعاشقين، ونجد أنه القاسم المشترك بين كل المحبين غير حبهم لمعشوقيهم هو غناؤهم لليل والتغني به في أشعارهم الغزلية، فالليل هو الستر المنيع الذي يحجب عن العشاق أعين الرقباء والفضوليين، وهو الزمان الذي يمنحهم فسحة جميلة من الوقت للجلوس مع المحبوب، والحديث معه والارتواء من معين العشق الذي لا يرتوي أحد منه، وكان الشاعر الجاهلي ينتظر بلهفة وشوق مجيء الليل بظلامه حتى يستطيع أن يصل المحبوب ، فيقطع المسافات ، والمفازات ، والمخاطر لأجل ذلك الوصول، فالشوق لا يطاق ، والعاشق لا يُلام في نظر أولئك الشعراء الذين سجلوا تلك القصص والحكايات عن ليل العاشقين السّمار الذين ينتظرونه بفارغ الصبر حتى يظفروا ويفوزوا بلقاء المحبوب ووعد بلقاء من جديد مع ليل آخر متجدد غير بعيد. فكان الليل هو الزمان الذي يجمع الأحبة بعضهم ببعض، وذكر لنا الشعر الجاهلي قصص العشّاق من خلال ما ذكره الشعراء أنفسهم وهم يصفون لنا مشاعرهم، وأحاسيسهم، ومخاوفهم، وحالاتهم النفسية وهم يغشون ليلاً

خباء المعشوقة، وما في ذلك من خطر محدق بهم قد يصل إلى حدّ الموت، لأن العرب يعتزون بشرفهم ومن يحاول النيل من ذلك الشرف جزاؤه الموت الزؤام لا غير؛ لذلك كان الليل خير رفيق وأنيس ومعين على زيارة الأحبة في تلك البيئة القاسية في كل شيء. وقد جسد الشعراء تلك الصورة لليل وكيف ارتبط بالحب والعشق وترجمه الشعراء في أشعارهم بشتى الصور والأخيلة، وقد اختلفت صورة ارتباط الليل بقصص العشّاق من شاعر إلى آخر، ونجد أولى هذه الصور مع أول قصيدة طويلة للعرب ذكرتها المصادر الأدبية التاريخية، ونقصد هنا معلقة أمرئ القيس التي ذكر فيها قصصه العاطفية الكثيرة وإن كانت في مجملها حسية مادية، فهو يمثل الحب من وجهة نظره التي يصدر عنها، إضافة إلى أنه أول من فتح هذا الباب على مصراعيه من الشعراء الجاهليين، فذكر قصصه ومغامراته العاطفية الليلية التي هي قصائد غزلية تعكس الروح التي كانت تسكن الذات الشاعرة والسائدة لدى شعراء العصر الجاهلي إجمالا، وقد سار أغلب الشعراء الجاهليين من بعد امرئ القيس على ذات الطريقة في الغزل و ارتباط انتاج كبير منه بالليل، ذلك لأن امرأ القيس كان أول من قصد ذلك المنحى وبدأه في أشعاره الغزلية، فنجد أن صناجة العرب الأعشى ميمون بن قيس يسير على ذات المنهج الذي ابتدعه امرؤ القيس في شعره الغزلي.

وبالعودة إلى صورة الليل في الشعر الجاهلي وارتباطه بالشعر الغزلي، نجد في معلقة امرئ القيس ذلك الارتباط العضوي بين صورة الليل والغزل، حيث يذكر لنا امرؤ القيس حديثه الذي كتمت سره ظلمة الليل وباحت به أبياته الشعرية في معلقته الطويلة حيث يقول:(بن حجر، 1990: ص18)

إذا ما الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَتْ لنَوْمٍ ثِيَابَهَا لَدَى السِّتْرِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ

إلى قوله:

إِلى مِثْلِهَا يَرْنُو الحَلِيْمُ صَبَابَةً إِذَا ما اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ

لقد صوّر امرؤ القيس في هذه القصيدة قصة عشق لإحدى محبوباته التي لا يمكنه الصبر عنها، ما دفعه إلى عمل جنوني أقل ما يوصف من وجهة نظر الإنسان العاقل؛ فقد انسل الشاعر ليلاً صوب ديار محبوبته، إلى أن وصل خباءها وفي ذلك ما فيه من خطر جسيم، وفي تلك الصورة يظهر ارتباط الليل بشعر الغزل الجاهلي، ومرد ذلك لمناسبة هذه الصورة في أداء المعنى بشكل منطقي وواقعي، لا خيال فيه أو مبالغة، فالليل هو الستر الذي يغطي أعين الناس عنه، من خلال ظلامه الدامس الذي يطمس كل الصور، ويخفي معالم الأشياء من حوله إلا أنفاس عاشق يكاد أن يفضحه سرعة تلاحقها وهي تعلو تارة، وتهبط أخرى وسط وجيب خفوق لقلب ذلك العاشق الصب المتهور، فالعشق مرض يصيب الإنسان فيجعله غير هيّاب للمخاطر من أجل لقاء المحبوب، ومرد ذلك أن النفس هي التي تهوى وتعشق فتكون هي المسيطرة على الإنسان بدلاً من العقل، الأمر الذي يجعل من تصرفات كل العشاق توصف بالجنون، وهذا ما حدث بالفعل مع امرئ القيس فنراه يصف مغامراته من أجل الوصول إلى ديار المحبوب، فيروي لنا بأن ما أن آلت الشمس للمغيب وظهر نجم الثُريا في الأفق كناية على نزول الظلام ومجيء الليل، فما كان منه سوى المسير نحو مضارب معشوقته، فيقول بإنه وصل إلى خبائها وقد كانت قد استعدت للنوم لكنها فاجأها فحلفت له أن يغادر ولا يفضحها أمام أهلها لأنه مجنون لا محالة لقيامه بذلك الفعل. ويقول الشاعر بأنها اضطرت للخروج معه خارج المضارب دون علم أهلها حتى لا يفتضح أمرها، ويستمر امرؤ القيس في وصف تلك الغارة العاطفية الليلية، من خلال وصفه لجمال محبوبته

وحسنها حتى ينتهي من سرد حكايته المجنونة. ونلاحظ من خلال هذه القصة الواقعية التي ذكرها الشاعر الجاهلي، بأن أغلب العشاق كانت بينهم وبين الليل علاقة وطيدة لأنه يعتبر الخل الوفي الذي لا يذيع لهم سراً، ولا يفضح لهم أمراً.

وتستمر قصص امرئ القيس العاطفية التي تستتر كلها تحت جنح الظلام، فهو قد وجد فيه نعم الصديق الوفي المخلص والذي يقوم بحجبه دائماً عن أعين الرقباء والمترصدين، وقرّبه من ديار المحبوبة، فيقول في هذا المعنى في قصيدته التي مطلعها:(بن حجر،1990: ص27)

أَلا عِم صَباحاً أَيُّها الطَلَلُ البالي وَهَل يَعِمَن مَن كانَ في العُصُرِ الخالي

إلى أن يصل إلى في قوله:

وَيا رُبَّ يَومٍ قَد لَهَوتُ وَلَيلَةٍ بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمثالِ

يُضيءُ الفِراشُ وَجهَها لِضَجيعِها مِصباحِ زَيتٍ في قَناديلِ ذَبّالِ

كَأَنَّ عَلى لَبّاتِها جَمرَ مُصطَلٍ أَصابَ غَضاً جَزلاً وَكَفَّ بِأَجزالِ

سَمَوتُ إِلَيها بَعدَ ما نامَ أَهلُها سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً عَلى حالِ

فَقالَت سَباكَ اللَهُ إِنَّكَ فاضِحي أَلَستَ تَرى السُمّارَ وَالناسَ أَحوالي

وقد جاءت هذه الحكاية في حدود العشرين بيتاً تروي كيف أن امرأ القيس قد ألتحف بظلام الليل للوصول إلى ديار المحبوبة، وكعادته في جنون العاشق الذي لا يعقل حقيقة ما يقوم به سوى أنه يتبع نفسه ورغباته في محاولة لإشباع شغفه من المحبوبة رغم كل المخاطر، فيصف لنا جمال محبوبته وكيف أنها غاية في الجمال والبهاء والروعة، ثم أنه يصور لنا خوف المعشوقة من الفضيحة التي قد تكون سببا في موتها وموته. وهكذا يستمر امرؤ القيس في صبواته تلك يتدرع بالليل حليفه الذي لا يخونه، ورفيقه الذي يمهد له الطريق للوصول إلى بلد المحبوب رغم الخوف والمهالك التي قد تعترض طريقه في سبيل ذلك الوصول. وتطول القصائد التي تركها امرؤ القيس والتي تتحدث عن الغزل وارتباطها بالليل والمحبوب، والتي يضيق المجال للحديث عنها في هذا المعرض.

وبالانتقال إلى شعراء جاهليين آخرين صوّروا الليل وارتباطه بالغزال فنجدهم قد ساروا على ذات طريقة امرئ القيس التي انتهجها، فلا غرو في ذلك فهم جميعا من ذات البيئة ولهم نفس الطرق للوصول إلى غاياتهم تلك من خلال التوسل بالدجى حتى يصلوا إلى غايتهم المنشودة. ومن هؤلاءِ الشّعراء الأعشى الأكبر ميمون بن قيس الذي نراه يسير في ركب الذين سبقوه في هذا المجال، فنذكر من قصائده الغزلية الكثيرة تلك التي ارتبطت بالليل ارتباطا عضوياً، لا فكك منه يصور فيه ذاته الشاعرة العاشقة الولهة والكلفة بحب الحبيب، وكيف أنه يستهين بالخطر المحدق به من كل حدب وصوب في سبيل ذلك المحبوب الجميل الذي يذكر لنا في ثنايا قصيدته جماله وروعته وصفاته التي ينتزعها الشاعر من بيئته الصحراوية التي يحيا فيها، فالمحبوبة في نظره أشبه ما تكون بالغزالة الجميلة، ذات العينين الجميلتين، فيسبغ عليها من الأوصاف ما يزيدها بهاءً وجمالاً، فهي غراء زانت كفها بالخِصاب، ويضوع منها العطر الغالي الأثمان، ثم يختم تلك الحكاية التي ألهبت أخيلة العشاق بإقرار منه بأنه متيمٌ بحبها، وأنه مستعد بأن يصارع الدنيا كلها من أجلها. وتظل ثنائية الليل والغزل البوتقة التي تنصهر فيها قصص العشق والعشاق التي صورها الشعراء الجاهليين في أشعارهم الكثيرة، ونقتبس لأجل ذلك من قصيدة الأعشى هذه الأبيات التي امتزج فيها الليل بالغزل، والتي مطلعها:(الأعشى،2005: ص45)

أَصرَمتَ حَبلَكَ مِن لَمي سَ اليَومَ أَم طالَ اِجتِنابُه

وَلَقَد طَرَقتُ الحَيَّ بَع دَ النَومِ تَنبَحُني كِلابُه

وَإِذا غَزالٌ أَحوَرُ ال عَينَينِ يُعجِبُني لِعابُه

حَسَنٌ مُقَلَّدُ حَليِهِ وَالنَحرُ طَيِّبَةٌ مَلابُه

غَرّاءُ تَبهَجُ زَولَهُ وَالكَفُّ زَيَّنَها خِضابُه

إلى قوله:(الأعشى،2005: ص46)

وَلَوَ اِنَّ دونَ لِقائِها جَبَلاً مُزَلِّقَةً هِضابُه

لَنَظَرتُ أَنّي مُرتَقا هُ وَخَيرُ مَسلَكِهِ عِقابُه

لَأَتَيتُها إِنَّ المِحِب بَ مُكَلَّفٌ دَنِسٌ ثِيابُه

وَلَوَ اِنَّ دونَ لِقائِها ذا لِبدَةٍ كَالزُجِّ نابُه

لَأَتَيتُهُ بِالسَيفِ أَم شي لا أُهَدَّ وَلا أَهابُه

وهكذا يرى الأعشى بانه لا توجد عوائق يمكنها أن تمنعه من لقاء المحبوب، سواء أكانت تلك العوائق طبيعية كالجبال الشاهقات، أو الضواري كالسباع الجائعات، فهو سوف يتقلد سيفه من أجل الوصول إلى المحبوب مهما كلفه الأمر من تضحيات وكل ذلك تحت جنح الظلام الذي يستره عن أعين لرقباء.

وربما كان لليل وارتباطه بشعر الغزل أثره على تحريك الوجدان والمشاعر لدى الشعراء من خلال السحر الغامض الذي يلف به الليل الكون من خلال ظلامه وضياء نجومه والتماع بروقه وضياء القمر، فيشعر المرء بأحاسيس جيّاشة تعتمر في صدره فينطلق بها لسانه، فالليل كفيل باستخراج تلك المشاعر التي تفيض بها النفس الشاعرة خاصة إذا لعبت بها رياح الشوق لطيف المحبوب، فليس كل الشعراء الجاهليين كانوا أصحاب غارات عاطفية على غرار امرئ القيس والأعشى، فقد كان هناك رهط من الشعراء يشون شجونهم، وحبهم لأطياف الأحبة الذين رحلوا، وابتعد بهم الزمان إلى البعيد، فنراهم يقرضون شعراً غزلياً رقيقاً، عفيفاً، رائقاً، ومن هؤلاءِ الشعراء حاتم الطائي فهو يناجي في شوق، وعشق طيف الحبيب الذي لا يزور إلا ليلاً، ويتحرك لذلك لواعج النفس من أشواق واحتراق لهذا الطيف الحبيب، فنراه ينطلق لسانه ويقول:(الطائي،2005: ص64)

لَم يُنسِني أَطلالَ ماوِيَّةٍ ناسي وَلا أَكثَرُ الماضي الَّذي مِثلُهُ يُنسي

إِذا غَرَبَت شَمسُ النَهارِ وَرَدتُّهَا كما يَرِدُ الظَمآنُ آبِيَةَ الخِمسِ

فهو يصف لنا مدى حبه وعشقه لماوية، فيذكر بأنه لن ينسى ذلك الحب، ولم ينس ماوية، فهو دائم الوقوف على أطلالها التي تذكره بها، وأنه إذا ما غربت الشمس وجنّ الليل، وأظلمت الدنيا، واسدل الليل ستوره عليها، غشي تلك الأطلال ويصور لنا حاله تلك من خلال صورة من البيئة التي شبه نفسه فيها بالأبل التي لم ترد الماء منذ خمسة أيام، فهي عطشى لم تتجرع قطرة ماء واحدة خلال تلك الأيام الخمس الماضية، فالشاعر يشبه شوقه لذكرى الحبيبة بالعطش الذي يكاد أن يذهب بالأبل، وهو يربط هنا بين حبهن وعشقه لماوية والليل الذي يغمر الدنيا بظلامه، فيمنحه فرصة الزيارة لتلك الأطلال الذي يناجي من خلاله طيف الحبيب الذي سافر به الزمان إلى البعيد ولن يعود، وهذه من الصور النمطية لليل والتي ارتبطت بشعر الغزل عند العرب.

ونختم صورة الليل وارتباطها بشعر الغزل عند الشعراء الجاهليين مع شاعر فاتك من فتاك العرب في الجاهلية وهو ثابت بن جابر بن سفيان والمعروف بين العرب بتأبط شراً، فهو يقدم لوحاته الغزلية تلك على عادة شعراء الغزل الجاهليين حيث يربط ما بين عتمة الليل وقضية الغزل، فهو –أي الليل–يعطيه مساحة واسعة وبعيدة عن أعين الناس الذين يشدهم الفضول إلى تسقط الأخبار وتتبع أحوال العشاق، فهو يجد فيه براح واسع للقاء المحبوب، ويصف لنا على عادة شعراء الغزل الجاهليين أمثال: امرئ القيس، والأعشى، وعنترة وغيرهم كثير كيف كان لقاؤه بالمحبوب، وكيف يرى أن ليلة لقائه بالمحبوب كانت من أفضل الليالي، فهو يصور لنا دونما خجل أو حياء مغامرته العاطفية تلك، التي كانت ذات ليلة بصحراء العرب في قديم الأزمان، فيقول:(تأبط شراً،2003:ص32)

خَيرُ اللَّيالي إن سألت بليلة ليل بخَيْمة بين بِيشَ وعَتّرِ

لِضَجيعِ آنسةٍ كأَنَّ حَدِيثَها شَهدٌ يُشابُ بمزجةٍ من عَنْبر

وضجيعِ لاهيةٍ أُلاعِب مِثلَها بيضاءَ واضحةٍ كَظِيظ المِئْزَرِ

ولأَنْت مثلُهما وخَيرٌ منهما بعد الرُّقاد وقبل أَن لم تُسْحِري

الليل والهموم:

ارتبط الليل بالهموم عند شعراء الجاهلية، وكان مصدر هذا الارتباط تعبيرهم عن تلك الهموم التي كان مبعثها جميعاً الحزن عندما يخيّم عليهم ليلاً. ومعلوم أن الحزن حالة نفسية يصاب بها البشر جراء الضغوطات النفسية التي يتعرض لها الإنسان نتيجة البيئة والمحيط الذي يعيش فيه ويحيا. فالإنسان منا عندما يشعر بالحزن فإنه يكون عُرّضة للهموم والآلام النفسية التي تجعله في حالة غير طبيعية؛ وذلك بسبب الدوافع التي تسببت في حالة الحزن تلك.

وسبب ارتباط الليل بالهموم والأحزان في الشعر الجاهلي مرده يعود إلى طبيعة الليل التي تجعل من الإنسان يشعر بالوحدة عندما يكون الليل رفيقه وهو محزون، كذلك نجد أن للبيئة دورا فهي بيئة صحراوية شاسعة تمنح الإنسان حالة من العزلة والانفراد بذاته رفقة الليل خاصة عندما يكون مهموماً، لذا ما أن يهبط الليل بظلامه إلى الأرض نجد الشاعر المحزون المهموم الذي يعاني صراعا نفسيا حادا نتيجة لحالة حزن التي تعتريه لسبب ما، فيجد في الليل الذي يحجب بظلامه الدامس كل شيءٍ المكان الذي يخلو به مع نفسه، وأحزانه، وهمومه، مما يجعله في حالة تركيز مع ذاته الشاعرة، ويحدث بينه وبين نفسه المحزونة حوارات، وخطاب للذات، وتفكير بصوت عالٍ، مما يجعله يعبر عن أحزانه من خلال أشعاره التي بيث فيها حالته النفسية المضطربة التي تنازع الألم من خلال الوحدة، والمعاناة والمكابدة رفقة الليل. وهنا نجد أن الليل يمثل قاسما مشتركا بين الشعراء الجاهليين الذي كانوا يعانون من آلام تلك الأحزان التي أهمّتهم وانعكست حالاتهم الشعورية تلك على الليل نفسه؛ فهم جميعاً وبدون استثناء ونقصد هنا الشعراء الجاهليين، يشعرون ببطء الليل وكأنه لا يتحرك أبداً، ومرد هذا الإحساس يعود إلى أن الإنسان الذي يعاني من مشكلة ما يشعر بأن الزمن متوقف بسبب همه الذي يقاسيه، عكس الإنسان السعيد الذي يرى بأن الوقت يمرُّ بسرعة البرق فيتعجب من ذلك. وهذه الصورة نجدها في أكثر اشعار الجاهليين الذين عبروا عن همومهم، فهم يقررون حقيقة واحدة مفادها أن الليل قد توقف تماماً وأنه يكاد أن يكون أزلياً لا ينقضي، أيضاً بسبب ما يعانيه أولئك الشعراء من هموم وأحزان قضّت مضاجعهم، واذهبت عنهم النوم، فصاروا أسرى لدى الليل يعدون نجومه ويرعونها، وسبب ذلك يعود إلى أن الإنسان المهموم الحزين لا ينام حتى وإن طال ليله بسبب حالته النفسية التي تكون متوترة مضطربة تمنع عنه النوم لأن الإنسان الطبيعي لا ينام حتى يشعر جسمه بالخدر والنعاس وهذا يحتاج إلى

حالة نفسية معتدلة خالية من الهموم والأحزان لذا قالت العرب في مثل هذا المعنى" وبلٌ للخلي من الشجي" فالخلي هو خالي البال الذي لا يشعر بهم ولا حزن فينام ليله، عكس الشّجي الذي يصارع الهموم فتصرعه وتمنع عنه النوم. فالإنسان المهموم هو إنسان متوتر ومشدود الأعصاب، لا يهدأ له حال ولا يشعر براحة بال مما يؤدي إلى جفاء النوم عنه بسب حالته النفسية الحزينة المتوترة. فالهموم التي تطارده تمنع عنه النوم، وتجعله يرعى النجوم ويشعر بأن الليل ما هو إلا قطعة مظلمة تجثم على صدر الأرض ولن تغادره أبداً. وقد عبّر الشعراء عن تلك الصورة لليل من خلال ارتباطه بهمومهم وأحزانهم، فنجد أن الشعراء كانوا رهائن نقاط ثلاث كانت السبب الرئيس في شعرهم الذي ارتبط بالليل ومعاناتهم النفسية تلك وهي:

1. الحالة النفسية المتوترة للشعراء حيث يسيطر عليهم الهم والحزن.
2. شعورهم بطول الليل، وربما توقفه عند نقطة معينة لا يزيد بعدها ما يزيد في معاناتهم النفسية.
3. الشعور بالأرق، والسهاد، والسهر، وجفاء النوم لهم مما يسبب مزيدا من التوتر والحزن.

وقد تظافرت تلك النقاط مجتمعة على قدح زناد الشعر لدى الشعراء الجاهليين للتعبير عن تلك الهموم التي تنهشهم فعبروا في أشعارهم عنها، وباحوا بتباريحها لعلهم بعد ذلك البوح يشعرون براحة النفس، وهدأة البال، في محاولة لتفريغ تلك الشحن النفسية التي ملأت النفس وشحنتها بالأحزان، وخلّفت فيها الألم، والأرق، فهي محاولة للهرب والخلاص من أحزانهم تلك، فهم –أي الشعراء الجاهليين– يبررون ما أهمهم وأحزنهم في محاولة للتخلص من تبعات قد خلقت فيهم هما لا ينقضي؛ ونجد أول من سامر الليل بأحزانه وبثه شجونه وآلامه، الشاعر الجاهلي امرئ القيس الذي ذكر في معلقته الطويلة معاناته مع الليل، وكيف أنه صوّر الليل مثل موج البحر الذي ارتبط بالشاطئ ارتباطا أزليا لا فكاك منه في صورة يعبر بها عن حالته النفسية السيئة التي جعل فيها الليل كأنه سرمدياً لا ينتهي أبدا؛ فيزيد ذلك كله من تباريح آلامه ومعاناته النفسية التي لا تنتهي. وسبب ذلك يرجع إلى حزن امرئ القيس الشديد، وهمه الذي أرّقه وقضّ مضجعه بعدما أن قُتِلَ والده حجر بن حارث ملك كندة، فهو مفجوع على مقتل والده وسيد قومه، حيث صار مطالبا بأن يثأر لوالده وأن يسترجع ملكه وفي ذلك همّ لا يقاس، وحزن شديد بسبب ذلك الحدث الجلل الذي ألّم به، فحاصرته همومه من كل صوب، وجعلت من ليله جحيما لا يطاق ولا ينتهي ، فيروي لنا عن معاناته تلك في قصيدته الطويلة التي ذكر فيها هذه المعاناة حيث صار الليل كموج البحر الذي لا ينتهي أبدا، ونجومه صارت ثابتة في السماء لا تتحرك في دلالة عن توقف الزمن في نظره، ومرده حالته النفسية التي تعاني من صراع حاد حدّ الانسحاق النفسي، فهو يشعر بأن الزمن قد توقف، وأن الظلام لفّ الدنيا ولن ينجلي عنها، ولو انجلى فالهم لن يبرح مكانه فهو مقيم معه دائما أبدا كالرفيق الوفي الذي لا يفارق. وفي ذلك يقول:(ابن حجر، 1990:19)

وليل كموج البحر أرخى سدولهُ عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فَقُلْتُ لَهُ لما تَمَطّى بجوزه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلي بصُبْحٍ وما الإصْباحَ فيك بأمثَلِ
فيا لكَ من ليلْ كأنَّ نجومهُ بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأنَّ الثريا علقت في مصامها بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَندَلِ

وقد غلبت على امرئ القيس تلك الاشعار التي يذكر فيها همومه وأحزانه من كثرة الخطوب التي نالت منه وجعلته مسّهدا لا ينام الليل، وفي ذلك يقول:(ابن حجر، 1990: ص216)

مِن خُطُوبٍ تَرَكَتْنِي قَلِقًا قَلَقَ المِحْوَرِ بالكَتِّ المِسَـــدْ

بَيَّتَتْنِي بِهُمـــــومٍ شُرَّعٍ خَلَسَتْ نَوْمِي وَأَحْذَتْنِي السُّهُدْ

فهو يرى بأن همومه قد اختلست النوم من عينيه، وجعلته كحادي العير الذي يسير بجنبه، لكنه في حقيقة الأمر هو حادٍ السهر والسهد من شدّة همومه وأحزانه التي عصفت به.

ولتمس ذات الصورة عن الليل والهموم في قصائد الجاهليين، فنجدها في أشعار النابغة الذبياني عندما سعى الوشاة بينه وبين النعمان بن المنذر وقصة فراره من الحيرة إلى حوران بالشام؛ حيث مكث عند الغساسنة خوفا من بطش النعمان الذي كان قد توعده بالعقاب، وبالنظر إلى العلاقة الوطيدة والمكانة السامية الرفيعة التي نالها النابغة في بلاط النعمان فإنه كان يشعر بأن الدنيا كلها قد أوصدت أبوابها في وجهه، وصار كالطريد الذي يخشى على نفسه من بطش النعمان، فكان له أشعارا كثيرة في ذلك تصف حالته النفسية التي آل إليها من شدة الخوف والحزن والجزع، فصار يرعي النجوم ولا يشعر بقرار أو طمأنينة، وفي ذلك يقول:(الذبياني،2005:ص13)

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ ناصِبِ وَلَيلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ

تَطاوَلَ حَتّى قُلتُ لَيسَ بِمُنقَضٍ وَلَيسَ الَّذي يَرعى النُجومَ بِآئِبِ

وَصَدرٍ أَراحَ اللَيلُ عازِبَ هَمِّهِ تَضاعَفَ فيهِ الحُزنُ مِن كُلِّ جانِبِ

وتتأكد تلك الحالة النفسية القاسية التي يشعر بها النابغة فتخلق فيه الحزن الشديد خوفاً من الوعيد، فنراه لا يغمض له جفن، ولا يستقر له حال، فيمتلئ صدره بالهموم وينطلق لسانه بالشعر معبرا عن حالته تلك التي يأمل معها أن يمُنّ عليه النعمان بن المنذر بالعفو والصفح حتى ترتاح نفسه من هذا الشقاء الذي حرمه النوم فجعله مثل المريض الذي اعياه الداء وزاد من مرضه أن فراشه عبارة عن أشواك شديدة قاسية لا يحتملها أحد لكنه هو ينام على ذلك الفراش من مرضه و وهنه ومع ذلك فإن شدة الآلام والمرض تمنعانه من النوم في تصوير عميق لمعاناته النفسية الشديدة التي يعانيها من شدة ما ألمّ به، فيقول في ذلك:(الذبياني،2005:ص9)

أَتاني أَبَيتَ اللَعنَ أَنَّكَ لِمتَني وَتِلكَ الَّتي أُهتَمُّ مِنها وَأَنصَبُ

فَبِتُّ كَأَنَّ العائِداتِ فَرَشنَني هَراساً بِهِ يُعلى فِراشي وَيُقشَبُ

ثم لا يلبث إلا أن يصرّح بما أهمه علّه يرتاح من ثقل ذلك الهم الذي جعله رفيقاً لليل، فيشّبه لنا حالته النفسية المزرية التي يمر بها من واقع بيئته الصحراوية القاسية التي تزخر بالهوام والزواحف السامة القاتلة، حيث يبيّن للناس مدى سوء حالته وما ألّم به من عظيم الخطوب، فقد صار بعد وعيد النعمان له مثل الذي لدغته حية رقطاء ضئيلة الجسم عظيمة السّم، في أنيابها الموت المحقق، فيقول في ذلك:(الذبياني،2005: ص76)

وَعيدُ أَبي قابوسَ في غَيرِ كُنهِهِ أَتاني وَدوني راكِسٌ فَالضَواجِعُ

فَبِتُّ كَأَنّي ساوَرَتني ضَئيلَةٌ مِنَ الرُقشِ في أَنيابِها السُمُّ ناقِعُ

لقد كان الليل رفيقاً للشعراء المهمومين، يبثونه أشجانهم، وأحزانهم لكنهم جميعاً بداية من امرئ القيس مروراً بالنابغة، والخنساء وغيرهم، كانوا يرون بأنه ليل سرمدي غير متحول ولا منقضٍ، وفي هذا المعنى يقول الأعشى ميمون بن قيس:(الأعشى،2005: ص84)

كَأَنَّ نُجومَها رُبِطَت بِصَخرٍ وَأَمراسٍ تَدورُ وَتَستَريدُ

إِذا ما قُلتُ حانَ لَها أُفولٌ تَصَعَّدَتِ الثُرَيّا وَالسُعودُ

وهو ذات المعنى الذي قاله من قبله صاحب اول طويلة في تاريخ الشعر العربي ونقصد امرأ القيس عندما قال يشكو طول ليله الذي لا يتحرك من شدّة الهموم التي يقاسيها امرؤ القيس:(ابن حجر،1990: ص19)

فيا لكَ من ليلْ كأنَّ نجومهُ بكل مغار الفتل شدت بيذبل

كأنَّ الثريا علقت في مصامها بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَندَلِ

ونلاحظ الحالة الشعورية التي اتّحد فيها الشعراء جميعاً عندما كانوا يبثون همومهم وأحزانهم تلك في قصائدهم وأشعارهم، فنجد ذات الصورة التي تعانيها الذات الشاعرة المبدعة فهي أكثر الناس حساسية وشعورا تجاه الخطوب التي تجعل منها مستنفرة غير مستقرة يخيم عليها الحزن والهم من كل مكان، وهذه الخنساء بنت عمرو بن الشريد أشعر نساء العرب تشاكي الليل على مدار عقود طويلة من هول ما أصابها من هموم واحزان بعدما قُتِلَ أخويها، معاوية وصخر فما كان منها إلا أن صارت شاعرة الليل التي لا تنام حتى تطلع شمس الصباح لأن الهموم والخطوب قد منعا عنها لذيذ النوم من شدّة حزنها وجزعها على أخويها، ونجد ذلك في أشعارها الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى التي وردت في ديوانها، ونذكر منها:(الخنساء،2004:ص16)

أَرِقتُ وَنامَ عَن سَهَري صِحابي كَأَنَّ النارَ مُشعِلَةٌ ثِيابي

إِذا نَجمٌ تَغَوَّرَ كَلَّفَتني خَوالِدَ ما تَؤوبُ إِلى مَآبِ

فالخنساء تسامرها أحزانها وهمومها التي أرّقتها وجعلتها لا تنام الليل فترى نفسها كمن اشتعلت النار بثيابه، وكأنها تقول بإن النار تأكل حشاها من الداخل من شدة الحزن والألم ما انعكس على نفسيتها وجعل النوم لا يتنزل على أرض قد استقرت بها. ونجد في ديوان الخنساء الكثير من هذه الأشعار الحزينة المملؤة بالألم والوجع ومنها:(الخنساء،2004: ص54)

انّي ارقتُ فبتُّ الّليلَ ساهرةً كانَّما كحلتْ عيني بعوَّارِ

أرعى النُّجومَ وما كلّفتُ رعيتها وتارَةً أتَغَشّى فضْلَ أطْمارِي

فنرى الشاعرة من شدة همها وحزنها باتت ترعى النجوم، وترافق الليل، فلا يطرق جفنها النوم وكأن قذى قد وقع في جفنها فتورمت عينها وجعلها الألم لا تنام من شدة الوجع.

وتظل الهموم والليل قاسما مشتركا يجمع بين الشعراء العرب في الجاهلية، فالهموم تطفو على سطح الليل وكأنها جزء منه لا يتجزأ وهذا الشاعر الفحل زهير بن أبي سُلمى يصور الليل في شعره بعدما أهمته الهموم ومنعت عنه النوم، في حين أن الخلي نام قرير العينين، وشتان ما بين خلي خالي البال، وبين مهموم مؤرق الجفن لا ينام! وفي ذلك يقول:(ابن أبي سُلمى،1995: ص66)

نَامَ الخَلِيُّ فَنَوْمُ العَينِ تَقريرُ مِمّا اذّكَرْتُ وَهَمُّ النّفسِ مذكورُ

لقد ارتبط مفهوم الهمّ والحزن في الشعر العربي الجاهلي بالليل ارتباطا وثيقا، واتفق الشعراء الجاهليين في التعبير عن ذواتهم بذات الصورة التعبيرية، فهم جميعاً محزونون مهمومون، لا ينام لهم طرف من شدّة ما تعانيه أنفسهم من تباريح الأوجاع والأحزان، ومرد ذلك إلى كثرة الخطوب التي ألمتْ بهم فهم مشتركون في ذات الشعور وإن اختلفت الأسباب التي جعلتهم يعانون الألم، لكن النتيجة كانت واحدة لأن النفس الإنسانية هي ذاتها لا تختلف إلا بالقدر الذي تفرضه الظروف البيئية مع اختلاف العوامل السياسية والثقافية والاقتصادية المؤثرة على المرء وتفكيره وكيفية تعاطيه مع الأمور، وبما أن الشعراء الجاهليين كانوا ابناء بيئة مشتركة واحدة

ولسان حالهم واحد يعيشون ذات الظروف، لذلك جاءت صورهم متشابهة إلى حدّ كبير في التعبير عن ذواتهم ، وعم حالتهم النفسية التي تشهد صراعاً نفسية عنيفاً وحاداً نتيجة الظروف التي يمرون بها. ونختم هذه الصورة عن الليل والهموم بشاعر جاهلي كريم عُرف بمكارم الأخلاق والكرم فكان مضرب المثل، ونقصد هنا حاتم الطائي الذي ألمت به الهموم مثله مثل باقي الشعراء الذين سبقوه، فجعلته يساهر الليل، ويرعى النجوم ويجد في نفسه كآبة ووحشة بسبب هموم لازمته حين من الدهر، فيقول في ذلك المعنى:(الطائي،2005: ص35)

أَبى طولُ لَيلِكَ إِلّا سُهود فَما إِن تَبينُ لِصُبحٍ عَمودا

أَبيتُ كَئيباً أُراعي النُجومَ وَأُوجِعُ مِن ساعِدَيَّ الحَديدا

وهكذا نرى بأن الكآبة والحزن الشديد تجعل من الليل طويلا لا ينقضي، وتمنّع النوم عن عيني حاتم، وهي نفس الصورة التي رسمها جميع الشّعراء لجاهليين لليل المهموم من قبل.

ونزعم بأن طول الليل عند جميع الشعراء مرده إلى أن الإنسان المهموم، المكروب تكون حالته النفسية مظلمة تشاؤمية يائسة، وعندما يخّيم الليل بظلامه تزداد حدة اليأس والكرب على تلك النفس ويشتد وقعها خاصة وأن الظلام يحجب الدنيا والصور والناس والكون جميعاً، فلا يجد الإنسان ما يسرّي به عن نفسه ويعللها به، عكس النهار حيث تكون الهموم غائرة في أعماق النفس مؤجلة لأن الإنسان يرى محيطه ويتفاعل معه من خلال مشاهد البيئة المختلفة التي يحيا فيها فينسى همه ويسعى وراء أبله أو ماشيته أو تجارته، فيخالط الناس ولا يكون منفردا بنفسه منعزل بها، مما يجعله يسلو وينسى أحزانه، فإذا هبط الظلام وانفرد بذاته و طفت على سطح الروح كل ما كان غائباً عنها من حزن، وألم، خلال فترة النهار التي كانت كلها حركة وسعي، فينشغل الفكر بالهم، والحزن، فيمتنع النوم ويخيم السهر، والسهد، ويصاب بالأرق فيظل ليله يرعى النجوم؛ وقد عبّر النابغة الذبياني عن هكذا فكرة عندما ألمح بأن الليل ليس كالنهار، حيث يكون لليل سطوة على الإنسان يستخرج من باطنه أحزانه وهمومه فلا يجد ملاذا ولا ملجأ من الهروب من ذلك الليل الذي يحاصر الذات المهمومة أينما كانت فقال:(الذبياني،2005:ص78)

فَإِنَّكَ كَاللَيلِ الَّذي هُوَ مُدرِكِي وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنتَأى عَنكَ واسِعُ

الخاتمة:

وفي ختام هذا الورقة البحثية التي تناولت صورة الليل في الشعر العربي الجاهلي نخلص إلى جملة من النقاط التي تختصر بعض أهم ما ورد فيها:

1. تناول الشعراء الجاهليين الليل بصور مختلفة في أشعارهم، حيث ارتبط بقضايا وأغراض شعرية مختلفة؛ لكنه-أي الليل-خرج من صورته الفيزيائية المعروفة إلى صور أدبية مختلفة تعبر عن الحالة الوجدانية والنفسية للشعراء.
2. كان الليل ملاذا وملجأ لكثير من الشعراء الذين اعتبروه رفيقا لهم حيث منحهم الكثير من الأحاسيس المختلفة وذلك باختلاف حالتهم النفسية.
3. ارتبط الليل عضوياً بقضايا الشعراء الجاهليين خاصة في أغراض الغزل، والفخر، والهموم.
4. ظاهرة ارتبطت لدى الشعراء الجاهليين من خلال ارتباط صورة الليل بالهموم، تمثلت في ظاهرة توقف الزمن فترة الليل، وكانت عند جميع الشعراء الجاهليين بداية من امرئ القيس مرورا بالأعشى والنابغة وزهير والخنساء، وقد ذكروا تلك الظاهرة في أشعارهم الكثيرة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الأسكافي، أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب. (**1985**).**مبادئ اللغة**. بيروت. لبنان: دار الكتب العلمية.
2. ابن الأهتم، عمرو بنُ الأَهْتَمِ السَّعْدي. (**1984**). **شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم**. دراسة وتحقيق، سعود محمود عبد الجابر. قطر. مؤسسة الرسالة.
3. ابن حجر، امرؤ القيس. (**1990**). **ديوان امرئ القيس**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. مصر.
4. الأعشى، ميمون بن قيس. (**2005**). **ديوان الأعشى الأكبر**. تحقيق عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة. بيروت. لبنان.
5. التليسي، خليفة محمد. (**2000**). **النفيس من كنوز القواميس صفوة المتن اللغوي من تاج العروس ومراجعه الكبرى**. الدار العربية للكتاب. طرابلس. ليبيا.
6. تأبط شرا، ثابت بن جابر. (**2003**). **ديوان تأبط شراً**. تحقيق عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة. بيروت. لبنان.
7. الجمحي، محمد بن سلّام. (**1976**). **طبقات فحول الشعراء**. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
8. الخنساء، تماضر بنت عمرو. (**2004**). **ديوان الخنساء**. تحقيق: حمدو طماس. دار المعرفة. بيروت. لبنان.
9. الذبياني، زياد بن معاوية. (**2005**). **ديوان النابغة الذبياني**. تحقيق: حمدو طمس. دار المعرفة. بيروت. لبنان.
10. ضيف، أحمد شوقي. (**1963**). **تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي**. دار المعارف. القاهرة. مصر.
11. الطائي، حاتم بن عبد الله بن سعد. (**2005**). **ديوان حاتم الطائي**. تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي. بيروت.. دار المعرفة.
12. أبي سُلمي، ربيعة بن رياح. (**1995**). **ديوان زهير بن أبي سُلمى**. تحقيق: محمد حمود. دار الفكر اللبناني. بيروت. لبنان